ريمون كيفوركيان, ليفون نورديكيان, فاهي تاشجيان, *الأرمن, البحث عن ملجا ١٩١٧-١٩٣٩* , بيروت, منشورات جامعة القديس يوسف, ٢٠١٠, ص. ٣٢٠

بداية أود أن أهنيء وأشكر القائمين على مشروع الكتاب الذي هو بمتناول أيدينا وخاصة الهيئة الوطنية الأرمنية في الشرق الأوسط.

ان هذا الكتاب، بنسخته الفرنسية الصادرة في العام ٢٠٠٦ وبنسخته العربية التي تقدم اليوم، يسد فراغا مؤكدا في مكتبتنا.

يعرف العديد منكم اني مؤرخة متخصصة بالتاريخ اللبناني المعاصر. لكني كنت غالبا، ومن خلال أبحاثي الخاصة، ومن خلال المحاضرات التي ألقيها في جامعة القديس يوسف، أواجه صعوبة الفهم والشرح، من الداخل، لعملية احلال الأرمن في لبنان وسوريا. وحيث اني لا أجيد اللغة الأرمنية، شأني شأن معظم اللبنانيين، فانه يصعب علي الوصول الى ما كتب باللغة الأرمنية عن هذه المسألة، في حين تبقى المعلومات المتاحة باللغات العربية والفرنسية والانكليزية نادرة.

يأتي هذا الكتاب ليسد فراغا واضحا بشكل مناسب وموفق. أولا نظرا للجدية العلمية التي تتحلى بها المساهمات الموجودة فيه، والمرتكزة أصلا على الاستثمار الأمثل للمصادر الرئيسية المتاحة، مثل أرشيف السلطات العثمانية والفرنسية وأرشيف المؤسسات الأرمنية، وسير الحياة والسير الذاتية للناجين من المذابح الجماعية وللمسؤولين العثمانيين، وأرشيف اليسوعيين والصحافة الأرمنية والعربية دون أن ننسى المقابلات الشفهية والأبحاث الميدانية.

وكونها تتناول مواضيع مختلفة، فان المقالات الخمس عشرة تقريبا التي يتألف منها الكتاب، تتكامل بشكل يتيح للقاريء تتبع المراحل الكبرى التي مر بها الأرمن منذ الابادة الجماعية أي منذ التهجير القسري الذي أقرته مصلحة ادارة اسكان العشائر والمهاجرين التابعة لوزارة الداخلية العثمانية سنة ١٩١٥، والذي رافقته وتلته مجازر أفرزت لاجئين ناجين من المذبحة. وكان من أمر هؤلاء أن تفرقوا في المقاطعات العربية للسلطنة العثمانية بشكل اساسي. وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، نزحوا الى كيليكيا التي كانت وضعت تحت الادارة الفرنسية ثم ما لبثوا، بعد اقل من سنتين، ان عرفوا تهجيرا جديدا كانت اخر فصوله نزوحهم عن سنجق الاسكندرون في سنة ١٩٣٩.

وهكذا يتيح لنا الكتاب متابعة مسيرة اللاجئين بشكل عام ومسيرة بعض المجموعات والافراد بشكل خاص. كما يتطرق الى مسألة لطالما بقيت من المحظورات ألا وهي مسألة النسوة والفتيات اللواتي زوجن طوعا وقسرا الى أتراك، أو اللواتي اغتصبن ثم تحولن الى الدعارة، بحيث بقي الجدل قائما حول امكانية اعادة قبولهن في الوجدان الأرمني.

ونكتشف في الكتاب أيضا وصفا للحياة بعد الحياة، أو بالأحرى للحياة بعد الموت، لهؤلاء اللاجئين الذين كدسوا في مخيمات بنيت كيفما اتفق في بيروت وحلب ودمشق،

digitised by A.R.A.R.@

بينما توزع الفتيان على المياتم في لبنان وسوريا وفلسطين. كما يبين الكتاب كيف عادت الحياة الى هذه المجموعات النازحة بمساعدة جمعيات الاعانة والاغاثة الأرمنية بشكل خاص، وكيف أعيد بناء المؤسسات الأرمنية - الكنيسة والأحزاب والجمعيات -، وكيف استعيدت التقاليد المدرسية، كل ذلك بهدف اعادة احياء الهوية الأرمنية بأقصى سرعة ممكنة. كما يبين لنا الكتاب كيف تمت عملية الانخراط الأرمنية على الصعد الاسكانية والاقتصادية والسياسية، منذ أواخر العشرينات من القرن العشرين، في الأحياء الجديدة في المدن وفي بعض الارياف ومجتمعاتها برغم المعارضات والمصاعب الجمة وعلى أكثر من صعيد.

ويتطرق الكتاب الى هذه المسائل الجلية باسلوب بسيط وواضح مرتكزاعلى وثائق دامغة وبمقاربة علمية جدية ورصينة بعيدا من الأهواء والتملق.

ولم يهمل الكتاب المساحات الانسانية. فأفرد للصور الفوتوغرافية حيزا كبيرا، مما أصبغ على العرض العلمي الجاف مسحة طراوة وبعدا بشريا. لأن تاريخ اللاجئين ان هو الا تاريخ ضحايا وظلم وتعذيب. وهذا ما نستشفه في نظرات الأطفال والنساء والرجال المتصاعدة من صفحات الكتاب والتي هي ربما ابلغ من الكلام واجدى.

لكل هذه الأسباب، ولأسباب أخرى ستظهرمعكم كلما تعمقتم في القراءة، يطرح الكتاب نفسه كمرجع. اننا اذن أمام كتاب تاريخ، كتاب تاريخ رائع. لكنه أيضا كتاب عن الذاكرة، أو بالأحرى وبشكل أدق، كتاب للذاكرة. اذ أنه، ومن خلال سرد الأحداث، يتيح للقارىء أن يفهم الذاكرة الأرمنية، ذاكرة الأمس واليوم، بشكل أفضل. وبالنظر الى البعدين: تاريخ للشهادة وذاكرة للفهم، فانه، بنظري، على كل لبناني أن يقرأه، خاصة اذا لم يكن من اصل أرمني.

ولحسن الحظ اضحى اليوم زمن المخيمات والمياتم بالنسبة للأرمن اللبنانيين من الماضي. لكن هل ولى معه فعلا سوء التفاهم؟ هذا لعمري ليس بأكيد. لقد سمعت لبنانيين، من سياسيين معروفين ومواطنين عاديين، يسألون الأرمن عن أولوية انتمائهم وما اذا كانوا لبنانيين أولا أم أرمنا أو اذا كانوا لبنانيين أكثر منه أرمنا وبالعكس. ولا يقتصر ذلك على الأرمن فقط. اذ غالبا ما نرى اللبنانيين يسألون بعضهم البعض عن درجة لبنانيتهم. ان الماضي موجود في الحاضر ومعرفة كيفية مواجهة الماضي سؤال يطرح نفسه بقوة وخاصة في لبنان. وهذا الكتاب يحمل أكثر من جواب على ذلك لكن على طريقته الخاصة.

فانه يبين لنا كم الأرمن هم ارمن. أو بعبارة أخرى يساعدنا على فهم كيفية وسببية وجود وتكوين وبقاء الثقافة الأرمنية في لبنان والمرتكزة أصلا الى ماض خاص بالمقارنة مع باقي مكونات المجتمع، ماض مصنوع من الآلام وعليه يشكل العامود الفقري للهوية الأرمنية. لكنه يبين أيضا كيف يتلبنن الأرمن بسرعة ملحوظة ويتأقلمون مع السياق العام للمجتمع الكلي والثقافة الطاغية فيه. وما يبينه الكتاب أيضا كيف أن الولاءين، أرمني-لبناني، لا يستطيعان الانفصال الواحد عن الآخر، حيث ان الواحد منهما ينبع من الآخر، وكلاهما يحملان الحقيقة كلها والتاريخ بشموليته: فاللاجئون الأرمن، ومنذ وصولهم الى

digitised by A.R.A.R.@

لبنان، لا يعيشون في الماضي، وحيث أنهم مجبرين على التكيف من أجل البقاء، فانهم يعيشون الحاضر. وفي هذا الحاضر اللبناني يحرصون أفرادا وجماعات على الحفاظ على هويتهم الأرمنية. ومن دون أن ينسوا ما حل بهم من الظلم والعنف، فانهم يوسعون آفاق تفكيرهم بغية الانخراط في حقائق العالم الذي يعيشون فيه بحيث لا يبقوا أسرى الماضي وسجناء الحقد. وهذا ما يسمح لهم ركوب ثقافة السلام المبنية أصلا على الماضي لكنها موجهة نحو المستقبل. ويسهل لنا الكتاب فرصة اكتشاف وفهم هذا الامر والوقوف على خصوصيات اللبنانيين الأرمن بناء عليه. كما انه يسمح أن نتحقق، وبالبرهان القاطع، انه من الممكن الخروج من ثقافة العنف والأحقاد دون فقدان الهوية، وانه بالتالي يمكن مواجهة الماضي من أجل تخطيه وتحمل تبعاته دون التعتيم عليه.

ومن حيث الشكل والمضمون، فان هذا الكتاب عن الأرمن، وباللغة العربية، هو أثر قيم. وهو يدلل على عدم صوابية فرضية البديل: لبنانيون أو أرمن. ويشهد على ذلك هذا المشروع الجماعي مع الأهداف التي رسمها والتعاون الوثيق الذي كان في أساس تحقيقه، منذ الفكرة الأولى الى مرحلة الترجمة. انها النظرية المتناسقة التي لم تأت على حساب أي من الهويتين بل كانت نتيجة تفاعل حقيقي بينهما بحيث أتت جودة الترجمة لتعززها وتثني على الفردية. انها نتاج شخص لبناني-أرمني، أو قل أرمني- لبناني، يتقن اللغة العربية بكل تشعباتها الثقافية وبنفس السهولة التي يتقن فيها اللغة الأرمنية بكل ما تحمله من تشعبات وتفاصيل.

هذه بالاختصار بعض الملاحظات والأسئلة التي قادتني اليها هذه الترجمة. ولم يبق لي سوى أن أهنيء مرة أخرى القائمين على هذا المشروع وأن أشكرهم على عملية اشراكي به مع تمنياتي لكم جميعا بقراءة موفقة.

CARLA EDDE